" المنهج التأثري عند جول لومتر

الدكتور أحمد طالب – جامعة تلمسان –

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول " جول لومتر " " أننا لا نحب المؤلفات الأدبية لأنها جيدة ، وإنما تبدو لنا جيدة لأننا نحبها ." ولد جول لومتر في 27/ أبريل/1853 . كان أبواه يقومان بالتدريس ، فنشأ هذا الناقد في بيئة مدرسية خالصة ، إذ عرف الكتاب منذ كان طفلا ، إذ أصبح لعبته المفضلة .

و مع طول المدة ، نشأ نوع من التآلف بين جول لومتر و الكتاب الذي أصبح لا يفارقه أبدا ، و تطورت هذه العلاقة إلى أقصى حدودها ، فشغف بالقراءة التي ملكت عليه عواطفه فترسخت عادة في نفسه.

و قد أدرك تماما بأن القراءة سبيل من سبل الوصول إلى العلم والمعرفة ، بالإضافة إلى تربية الذوق ، و تنمية القدرة على الحس الفني و الجمالي .و بخاصة عندما تكون القراءة عن رغبة شخصية ، و ليس عن إكراه و إلزام خارجي .

و غلبا ما كان يقع الاختيار على " جول لومتر " لقراءة الشعر وهو لم يتجاوز السابعة من عمره ، للانفعال الشديد الذي كان يهزه إلى حد البكاء أحيانا لشدة تأثره بالقصيدة الشعرية ، و الانغماس فيها بكل جوارحه و عواطفه .

" و القارئ الذي يملك الذوق الأدبي الراقي ، و الحاسة الفنية المرهفة ، يقدم لنا انفعالاته الذاتية بعد قراءة النص الأدبي ، في صورة نقد أدبي و ذلك إذا كان قارئا قد وصل إلى مرتبة الكمال ، في تكوينه الأدبي و تربيته الفنية "[1]

أما القارئ الذي لا يملك الذوق الأدبي ، و لا الحاسة الفنية والجمالية ، لا يستطيع تقديم نقد حقيقي عن تلك الأعمال الأدبية ، لأن الشرط الرئيس انعدم من الأساس ، و هو التذوق الفني و الجمالي للأعمال الإبداعية ، كيفما كانت أنواعها ، شعرا أم نثرا.

شغف " جول لومتر " بالقراءة ،(كما ذكرنا) و قد وجد في الأعمال الأدبية الإبداعية لونا من المتعة الفكرية القوية ، التي نمت فيه حاسة التذوق الفني و الحس المرهف ، مما جعله يُطرد من المدرسة الدينية و هو في العاشرة من عمره ، لأنه قرأ المسرح الكامل ل"راسين"، بالإضافة إلى شعر " كورني " و كانت المدرسة الدينية تمنع مثل هذه الأعمال الأدبية ظنا منها بأنها تفسد شعور الأطفال.

و لم يمنعه هذا الإجراء الظالم مواصلة القراءة ، التي أصبحت عادته المفضلة ، بل واصل قراءة الأعمال الكاملة لكبار الكتاب في سن مبكرة ، كما استطاع تذوق الأدب الرفيع ، بشعور و إحساس مرهف.

التحق " جول لومتر " بمدرسة المعلمين العليا ب"باريس" ، إذ عثر على المناخ المناسب للارتقاء بقراءته من مرحلة التذوق الفني إلى مرحلة التحليل الناضج ، و قد وجد في هذه المدرسة التوجه الأدبي المتميز المناسب لطبيعته الخاصة ، بالإضافة إلى الفهم و التحليل والبحث عما يكمن داخل الإبداع الفني من جمال . و عل الرغم من قراءته لجميع الأعمال الأدبية، كان يتهم نفسه في أغلب الأحيان بالكسل و الارتخاء.

تخرج " جول لومتر " من المدرسة العليا للمعلمين ، والتحق بالتدريس في فرنسا ثم الجزائر . و اختار حياة العزلة ، للتفرغ للقراءة ، و هكذا اطلع على كثير من الكتب و المجلات الأدبية ، حتى أصبحت القراء حاجزا جميلا يفصل بينه و بين كثير من الذين لا يرغب في النظر إليهم لبشاعتهم كما يرى .

و مما فعله " لومتر" مع طلبته هو تدريبهم على اكتساب عادة القراءة ، لأنه فيما يرى أن متعة القراءة أمر طبيعي و أولي يجب الوصول إليه أولا و قبل كل شيء ، و أن الأدب هو التمتع بقراءته إلى حد الإغراق في اللذة الأدبية الخالصة، و الاندماج في الجو السحري الجميل الذي يمثله الأدب الرفيع الذي لا يخلو من روعة . [2]

واصل " لومتر " منهجه في تدريب طلبته على حب القراءة والتذوق و الوقوف على أسرار الجمال الأدبي ، على الرغم من اعتراض بعض أوليائهم على طريقة التدريس ، و مما يلفت النظر ، هو حبه لكل الكتب التي قرأها لأنها كما يقول : " هي حقيقة حتى الخرافات منها ".

و هو يدعو الناقد إلى اكتساب عادة القراءة الملازمة الطويلة والكثيرة ، لجميع المؤلفات بدون استثناء ، حتى يكتسب من خلالها الذوق الجمالي ، و يستنتج منها مقومات الأدب الفنية. و بهذه الطرقة يصل إلى حب الأدب إلى حد الانفعال المباشر التام .[3]

سخر " لومتر" من الاتجاهات النقدية ، التي سلكتها المدارس المختلفة في تاريخ النقد الأدبي في القديم و الحديث ، فقد كان الناقد لا يفتح كتابا للمتعة الفكرية ، و إنما لينقده و يحكم عليه . ففي العصر اليوناني ، كان النقد الأدبي تحليلا أخلاقيا و فلسفيا و طبيعيا و أحكاما من وجهة نظريات أخلاقية و فلسفية و علمية .

ورثت أوربا ما خلفه اليونانيون من علم و فلسفة ، إذ جعلت منه أساسا تقلده و تسير على منواله. [4] و أخذت العصور الكلاسيكية في التبلور و التكوينن في بلاد أوربا المختلفة ، جاعلة التراث اليوناني والروماني ركنا أساسيا لأسلوبها في فهم الأدب و نقده.

ففي العصر الكلاسيكي فرضت على الأدب و النقد الأدبي قواعد صارمة محددة مسايرة لروح العصر ، و كان طبيعيا أن يتأثر علم الجمال بذلك التيار العارم . و أصبح الإنتاج الفني ، صورة لجمال ثابت مستقل عن الزمان والبيئة ومماثل لحقيقة لا تتغير من الطبيعة الإنسانية.

و كما قال " بوالو " " إن الحقيقة لا تتغير ، و الجميل أيضا لا يتغير ، وإذا أردنا الوصول إلى إنتاج ذلك الجمال الثابت فإنه لمن الواجب الخضوع لقواعد غير قابلة للتغيير . " [5]

و بقي النقد الأدبي يعاني من هذه القواعد الصارمة التي فرضها المجتمع على النقاد ، كما لم تستطع العبقريات الفردية التي كانت تحاول التجديد من الظهور . إلى أن أخذت بوادر حركة أدبية جديدة تلوح في الأفق ، في أوائل القرن التاسع عشر و هي الحركة الرومانسية ، و هي حركة ضد الكلاسيكية ، و ضد مفاهيمها الأدبية و النقدية .

فإذا كانت الكلاسيكية تعتقد بأن الجمال ثابت و الطبيعة البشرية واحدة ، فإن الرومانسية ترى بأن الجمال متغير و متبدل ، و الطبيعة البشرية متغيرة أيضا و متطورة . و من هنا صار الناقد الرومانسي يبرز ذلك الاختلاف ، و يدعو إلى التحرر من تلك المفاهيم الجامدة ، والقواعد الخاطئة التي دعا إليها الكلاسيكيون.

و في ظل هذه المدرسة الجديدة أصبح النقد الأدبي صورة للعبقريات الفردية ، فتعددت بذلك المدارس و تنوعت مذاهبها ، و صار البحث عن الجمال في النص الأدبي بدل البحث عن العيوب فيه. و قد رأوا أن تلك الأخطاء ربما تكون جزءا من الجمال.

و قد يرى بعض الباحثين أن النقد الأدبي بمعناه الحقيقي ولد في هذا العصر ن و أصبح له قواعده و أصوله الفنية الخالصة . و قد أكد "ألبير تيبودي " [6] أن النقد ظهر في العصر الرومانسي بينما ظهرت الأحكام في العصور التي كانت قبله.

ازدهرت الحركة النقدية في أرجاء أوروبا و ظهرت عديد من المدارس النقدية التي تنوعت اتجاهاتها و اختلفت مناحيها و أساليبها في فهم الأدب و نقده ، و قد تطور "الأدب النقدي" على يد "سانت بيف" الذي اعتبر خالق الأدب المبتكر المبدع ، فقد وضع أمام النقاد نماذج مثالية يسيرون على منوالها ، و هو يرى من الخطأ الاعتقاد بان النقد الأدبي يعيش عالة على إنتاج الآخرين إذ يمكنه الوصول إلى الخلق الفني.[7]

و كان"سانت بيف" يريد من خلال هذا النقد بناء "علم الإنسان" أي فهم الروح الإنسانية و الوصول إلى أعماق الطبيعة البشرية ، لكتابة التاريخ الطبيعي للأدب ، و قد استطاع بفكره أن يتسلل إلى أعماق المبدع ليكشف عن الأسرار التي دفعته للكتابة . و لهذا احتل الأديب عنده مكان الصدارة ، أما إنتاجه الإبداعي يأتي في المرتبة الثانية . و من الأدب نستطيع معرفة الكاتب ، و ليس العكس .

طغت الروح العلمية في القرن الماضي، و كان طبيعيا أن تسيطر على مختلف الدراسات، من بينها النقد الأدبي ، فظهر " تين " و هو أحد كبار النقاد (1828-1893) حاول وضع " علم الاجتماع للأدب " بإقامة قواعد صارمة تفسر الأدب ، و هي العوامل الثلاثة : العنصر أي الجنس، و البيئة، و اللحظة المناسبة و يقصد بها العصر و هذه هي الدوافع الموجهة للأدب ، و قد يقتصر هذا النقد على الجانب الاجتماعي، دون الوقوف على الجانب الجمالي للعمل الإبداعي . و من هنا يمكننا إدراك ضعف المنهج ، بسبب روح التقنين .

و يأتي الناقد " برونتير" الذي حاول الاستمرار في هذا الاتجاه ، مع الاستفادة من نظرية " داروين " (1809-1882) في التطور ، التي طبقها على الأدب ، فبلغ بذلك النقد الأدبي أقصى

درجة من التقنين العلمي ، كما ساير الكلاسيكيين في اعتقاداتهم بأن الحقائق ثابتة في الأدب وأن النقد الأصيل يكمن في الحكم على هذه الحقائق . و قد هاجم مدرسة الفن للفن ، و أنصار النقد التأثري الذين يدعون إلى حب الأدب ، بدل الحكم عليه و البحث في أخطاء فيه.

استفادت فرنسا بعد ثورة 1789 عن طريق الترجمة من ألمانيا، التي ظهرت فيها تيارات نقدية جديدة ، إذ أسهمت " مدام دو ستال" (1766-1817) بكتابها الشهير " عن ألمانيا " في إصلاح الفكر الفرنسي و بخاصة النقد الأدبي .[8] و قد ركزت اهتمامها الخاص على الاستمتاع بالنص و الكشف عن جماله الأصيل بدل من البحث في عيوبه.

سار " شاتو بريون " (1768-1848) على هذا المنهج، داعيا إلى الغوص في النص لتعيين مواطن الجمال فيه ، لإبرازها و الاستمتاع بها ، و الاهتمام بالعبقرية الفردية و مميزاتها الخاصة ، حتى لا تغطيها صور المجتمع الذي تعيش فيه.

و يأتي الناقد " أرنست رينان " الذي أعلن أن العمل الفني هو ذلك الذي يمثل الجمال الخالد اللانهائي للطبيعة الإنسانية و يؤكد أن كل شيء يثير الإعجاب و النقد . و لعل هذه الأفكار و غيرها مهدت بصورة تدريجية للمنهج التأثري .[9] و قد استفاد " جول لومتر " من آراء "رينان"و من أصحاب الاتجاه الفردي في الأدب و النقد.

الهوامش:

[1]- عطية عامر " مدرسة النقد التأثري و أثرها في النقد الحديث " محاضرات ، جامعة القاهرة سنة 1976 ، ص 2.

[2]- المرجع السابق ، ص 4.

[3]- المرجع السابق ص 5.

[4]- أحمد طالب " الالتزام في القصة القصيرة الجزائرية المعاصرة " ديوان المطبوعات الجزائرية ، الجزائر ، 1989،ص11.

[5] Malho Raphael << la critique litteraire en France >> preface p. 10.

[6]- ناقد فرنسي ، ولد عام 1874 ، و توفي عام 1936 له عدة مؤلفات أدبية و نقدية ، من بينها " فلسفة النقد "

[7] Moreau P. la critique selon Sainte Beuve.

[8] Moreau P. << la critique litteraire en France >> p . 101.

[9]- عطية عامر " مدرسة النقد التأثري و أثرها في النقد الحديث" ص 14.